

صنع الكتاب العرب

د. وليد سراج*

الكتابة في اللغة مصدر كتب يكتب كتباً وكتاباً وكتابةً ومكتبةً وكتبة فهو كاتب ومعناها الجمع ، ومنه قيل لجماعة الخيل كتبية ، ومن ثم سمي الخط كتابة لجمع الحروف بعضها الى بعض . قال ابن الأعرابي: وقد نطلق الكتابة على العلم ومنه قوله تعالى في سورة الطور/ ٤١: [أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتَسِبُونَ] أي يعلمون . وعلى حد ذلك قوله (ﷺ) في كتابه لأهل اليمن حين بعث اليهم معاذاً وغيره « اني بعثت اليكم كاتباً » . قال ابن الأثير في غريب الحديث : « أراد عالماً سمي بذلك لأن الغالب على من كان يعلم الكتابة أن عنده علماً ومعرفة ، وكان الكاتب عندهم قليلاً وفيهم عزيزاً » (١) .

□ فضل الكتابة :

أعظم شاهد لجليل قدرها وأقوى دليل على رفعة شأنها أن الله تعالى نسب تعليمها الى نفسه ، واعتدّه من وافر كرمه وإفضاله فقال في سورة العلق/ ٤ : [إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ] ، مع ما يروى أن هذه الآية والتي قبلها مفتتح الوحي في قول معظم المفسرين ، وأول التنزيل على أشرف نبي وأكرم مرسل (ﷺ) ، وفيه دعوة الى القراءة والكتابة والعلم . روى سعيد عن قتادة قال : « القلم نعمة من الله تعالى عظيمة ، لولا ذلك لم يقيم دين ، ولم يصلح عيش . فدل على كمال كرمه سبحانه بأنه علّم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل الى نور العلم ، ونبّه على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة ، التي لا يحيط بها الا هو » (٢) . وفي ذلك من الاهتمام بشأنها ورفعة شأنها ما لا يخفأ فيه . ولذلك نقل صاحب البيان والتبيين : « القلم أحد اللسانين ، كما قالوا : القلم أبقي أثراً واللسان أكثر هذراً » (٣) .

★ خبير الاعلام العربي لدى المركز الدولي للبحوث الزراعية في المناطق الجافة (ايكاردا) .

وقد بيّن الله شرفها بأن وصف بها الحَفَظَةَ الكرام من ملائكته فقال جلّت قدرته في سورة الانفطار/ ٥ : [وإنّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ] . ولا أعلى رتبة وأبذخ شرفاً مما وصف الله تعالى به ملائكته ونعت به حَفَظَتَهُ ، ثم زاد ذلك تأكيداً بأن أقسم بالقلم الذي هو آلة الكتابة وما يُسَطَّرُ به فقال تقدّست أسماؤه في سورة القلم/ ١ : [إنّ . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربّك بمجنون] . والاقسام لا يقع منه سبحانه إلا بشريف ما أبدع، وكريم ما اخترع: كالشمس والقمر والنجوم ونحوها ، الى غير ذلك من الآيات الدالة على شرفها ورفعة قدرها . قال سعيد ابن العاص : « من لم يكتب فيمينه يسرى » ، وقال معن بن زائدة : « اذا لم تكتب اليد فهي رجُل » . وبالعكس فقال : « لا دية ليدلا تكتب . » وقال ابن المقفع : « الملوك أحوج الى الكتاب من الكتاب الى الملوك » (٤) .

وأورد القلقشندي (٥) رسائل في المفاخرة بين السيف والقلم ، إشارة الى أن بهما قوام الملك وترتيب السلطنة ، بل ربما فضل القلم على السيف ورجّح عليه بضروب من وجوه الترجيح . كما قال أبو الفتح البستي مفضلاً للقلم بقسم الله تعالى به :

إن افتخر الأبطال يوماً بسيفهم وعدوه مما ينسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزاً ورفعة مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

وكما قال النوبختي :

كذا قال الله للأقلام مُدْ بَرِيَّت أن السيوف لها منذ أرفقت حدم
وعلى النقيض الآخر أورد المصري (٦) ما قاله أيضاً بعض أنصار السيف : كقول أبي تمام :

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

والمتنبي :

حتى رجعت وأقلامي قوائيل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم

□ ما قاله السلف عن أمانة الرسول :

قد يسأل سائل : اذا كان الأمر كذلك فلم كان الرسول الأعظم أمياً ؟ وفي الجواب أشار الأقدمون الى أن الكتابة حرّمت على النبي رداً على الملحدين حيث نسبوه الى الاقتباس من كتب المتقدمين ، كما أخبر تعالى بقوله في سورة الفرقان/ ٥ : [وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيل] . وأكد ذلك بقوله في سورة العنكبوت/ ٤٨ : [وما كنتم تتلوا من قبله من كتاب ولا

تَخْطُطُهُ بِبَيْمَيْنِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ] قال العتبي : « الأُمِّيَّة في رسول الله (ﷺ) فضيلة » وفي غيره نقيصة » (٧) . وهي المعجزة الخالدة له لأن الله لم يعلمه الكتابة لتمكّن الانسان بها من الحيلة في تأليف الكلام ، واستنباط المعاني ، فيتوسل الكفّار الى أن يقولوا اقتدر بها على ما جاء به . وفي الحديث الشريف : « أُوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً » (٨) .

□ فضل العربية :

قال العرب والمنصفون من الأعاجم ان العربية تامة الحروف ، كاملة الألفاظ ، اذ لم ينقص عنها شيء من الحروف فيشينها نقصانها ، ولم يزد فيها شيء فيعيبها زيادته . وقد خبرت هذا عن تجربة ؛ فترى العرب قادرين على اخراج مختلف الأصوات والنبرات الأعجمية ، وما ذلك الا بسبب احتواء العربية على جميع مخارج الحروف . ومن خصائصها أنه يوجد فيها من الايجاز ما لا يوجد في غيرها من اللغات ؛ فمن الايجاز الواقع فيها أن للضرب كلمة واحدة فتوسعوا فيها ؛ فقالوا للضرب في الوجه لَطْمٌ ، وفي القفا صَفْعٌ ، وفي الرأس اذا آدمى شَجٌّ ، فكان قولهم لَطْمٌ أوجز من ضرب على وجهه ، وكذلك اسم محمد بالعربية مثلاً فانه يتألف من أربعة حروف ، بينما هو في الانكليزية وسائر اللغات المتفرعة عن اللاتينية يتألف من ثمانية احرف MUHAMMAD ، ذلك أن الحروف الصوتية والمضاعفة في العربية مشكولة وهناك مكتوبة .

ونقل ابن فتيبة في « عيون الأخبار » (٩) عن ابن شبرمة قوله : « اذا سرّك أن تعظم في عين من كنت في عينه صغيراً ، ويصغر في عينيك من كان في عينيك عظيماً فتعلم العربية ، فانها تجريك على المنطق ، وتدنيك من السلطان » .

□ ذكر ما يحتاج الكاتب الى معرفته من الأمور الكليّة :

قال النويري (١٠) ان أول ما يبدأ به من ذلك حفظ كتاب الله تعالى ، وملازمة درسه ، وتدبر معانيه ، ويتلو ذلك الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية ، وخصوصاً في السير والمغازي والأحكام ، ثم قراءة ما يتفق من كتب النحو ، وما يتها من مختصرات اللغة ، ويتصل بذلك حفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم ، ومخاطباتهم ومحاوراتهم ومراجعاتهم ومكاتباتهم . وأيضاً النظر في أيام العرب ووقائعهم وحروبهم ، ثم النظر في التواريخ ومعرفة أخبار الدول ، وحفظ أشعار العرب ومطالعة شروحاتها واستكشاف غوامضها ، والتوفر على ما اختاره العلماء بها منها . وكذلك حفظ جانب جيد من شعر المحدثين ، والنظر في رسائل المتقدمين ، وكتب الأمثال ، والأحكام السلطانية . وأما الأمور الخاصة التي تزيد معرفتها قدره ، ويزين العلم بها نظمته ونثره فانها من المكملات لهذا الفن . ومن ذلك علم المعاني والبيان والبديع ، ومنها ذكر الفصاحة والبلاغة والحقيقة والمجاز .

□ ذكر ما يحتاج اليه الكاتب من الأمور اللغوية :

لا مِرية في أن اللغة هي « رأس مال الكاتب ، وأسر كلامه ، وكنز انفاقه ؛ من حيث أن الألفاظ قوالب للمعاني التي يقع التصرف فيها بالكتابة . وحينئذ يحتاج الى طول الباع فيها ، وسعة الخطو ، ومعرفة بسائطها ؛ من الأسماء والأفعال والحروف ، والتصرف في وجوه دلالتها الظاهرة والخفية ، ليقدر بذلك على استعمالها في محالها ووضعها في مواضعها اللائقة بها ، ويجد السبيل الى التوسع في العبارة عن الصور القائمة في نفسه فيتسع عليه نطاق النطق ، وينفسح له المجال في العبارة ، وينفتح له باب الأوصاف فيما يحتاج الى وصفه ، وتدعو الضرورة الى نعته ؛ فيستظهر على ما ينشيه ، ويحيط علماً بما يذره ويأتيه » (١١) .

ولا يخفى أن الكاتب يحتاج في كماله الى معرفة لغة الكتب التي يطالعها في مجال تخصصه ، وهذا قد يعني الامام بلغة أو أكثر من اللغات الأعجمية . وقد روى محمد بن عمر المدائني في « كتاب القلم والدواة » بسنده الى زيد بن ثابت (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ) : « انه يرد عليّ أشياء من كلام السريانية لا أحسنها فتعلم كلام السريانية فتعلمتها في ستة عشر يوماً » (١٢) . من هنا اهتم العرب بتعلم اللغات الأعجمية ، ووضعوا شرائط للترجمان كالتي أوردها الجاحظ : « وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء به أقل ، كان أشد على المترجم ، وأجدر أن يخطيء فيه . ولن تجد البتة مترجماً يفني بواحد من هؤلاء العلماء » (١٣) .

□ ذكر ما يحتاج اليه الكاتب من المعرفة بالنحو :

أجمع العرب على أن النحو هو قانون العربية ، وميزان تقويمها ، وهو لها - كما قيل - كالمليح في الطعام ، ونقل القلقشندي عن صاحب « المثل السائر » : « وهو أول ما ينبغي اثبات معرفته ؛ على أنه ليس مختصاً بهذا العلم خاصة بل بكل علم ؛ لا بل ينبغي معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي ليأمن معرفة اللحن . ومن كلام مالك بن أنس : « الاعراب حلّي اللسان فلا تمنعوا ألسنتكم حلّيها » . والله درّ أبي سعيد البصري حيث يقول :

النَّحْوُ يَسُطُّ مِنْ لِسَانِ الْأَلْكَنِ وَالْمَرْءُ تَكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَتَلَحَّنْ
وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَهَا فَاجْلِثْهَا عِنْدِي مُقِيمُ الْإِنْسَانِ

وقد روي أن أعرابياً قرأ الآية ٢٨ من سورة فاطر هكذا : [إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ] برفع الأول ونصب الثاني، فوقع في الكفر بنقل فتحة الى ضمة وضمة

الى فتحة ، فقليل له : يا هذا إن الله تعالى لا يخشى أحداً ! فتنبه لذلك وتفتن له « (١٤) .
ولذا قال مَسْلَمَةُ بن عبد الملك : « اللحن في الكلام أَقْبَحُ من الجذري في الوجه » (١٥) . قال
القلقشندي : « واعلم أن اللحن قد فُشِيَ في الناس ، والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم
بالاعزَابَ غيباً ، والنطق بالكلام الفصيح عيباً ٠٠ وقف بعض الخلفاء على كتاب لبعض
عماله فيه لَحْنٌ في لفظه ، فكتب الي عامله : قَنِّعْ كاتبك هذا سوطاً معاقبةً على لحنه .
قال أحمد بن يحيى : كان هذا مقدار أهل العلم ، وبحسبه كانت الرغبة في طلبه والحذر
من الزلل ٠٠ فكيف لو أبصر بعض كُتَّابِ زماننا هذا ؟ قد قال ذلك في زمانه هو وفي
الناس بعض الرمق ، والعلم ظاهر وأهلُه مَكْرَمُونَ ، والا فلو عَمَرَ الى زماننا نحن
[بل فما بالك بزماننا نحن !] لقال [تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ] « (١٦) ولكن لسان حاله
كما قال الشاعر :

تَعَسَّ الزمانُ ! فقد أتى بعُجَابٍ ومَحَا فَنُّونَ الفضلِ والآدابِ
وَأَتَى بِكُتَّابٍ لو انبسطتْ يَدِي فيهم ردَدَتْهُمْ الى الكُتَّابِ

□ ذكر ما يحتاج اليه الكاتب من الأمور العلمية :

لعل أحسن ما قيل في هذا الباب ما أورده ابن قتيبة عن كتابه النفيس « أدب
الكاتب » (١٧) من أنه ليس لمن لم يتعلق من الانسانية الا بالجسم ، ولا من الكتابة الا
بالاسم ، ولم يتقدم من الأداة الا بالقلم والدواة : ولكنه لمن شَدَا شيئاً من الاعراب
فعرِفَ الصُّدْرُ والمصدر ، والحال والظرف ، وشيئاً من التصاريِف والأبنية ، وانقلاب الياء
عن الواو ، والألف عن الياء ، وأشياء ذلك ٠ ولا بد له من النظر في الأشكال لمساحة
الأرضين ، حتى يعرف المثلث القائم الزاوية ، والمثلث الحاد ، والمثلث المنفرج ، ومساقط
الأحجار ، والمربعات المختلفة ، والقيسي والمدورات ، والعمودين ، ويمتحن معرفته
بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر ، فإنَّ المُخْبِر عنه ليس كالمُعَاين ٠ وكانت العجم تقول :
من لم يكن عالماً بآجراء المياه ، وحفر فُرُصِ المشارب وردَمِ المَهاوي ومجاري الأيام في
الزيادة والنقص ، ودوران الشمس ، ومطالع النجوم ، وحال القمر في استهلاكه واتصاله ،
ووزن الموازين ، وذَرَعِ المثلث والمربع والمختلف الزوايا ، ونصَبِ القناطر ،
والجسور ، والدوالي ، والنواعير على المياه ، وحال أدوات الصنَّاع ، ودقائق الحساب ، كان
ناقصاً في خال كتابته ٠ ولا بد له من النظر في جمل الفقه ومعرفة أصوله ٠٠ والحديث ٠٠
ودراسة أخبار الناس ، وتحفظ عيون الحديث ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً بها اذا
كُتِبَ ويصل بها كلامه اذا حاور ٠ ثم خفف على الكُتَّاب بعد ذلك قائلاً : « ومدار الأمر
على القُطْبِ ، وهو العقل وجودة القريحة ، فإن القليل مفهما باذن الله تعالى كاف ،
والكثير مع غيرهما مقصَّر » ٠ وختم ذلك بالقول : « ونستحب له أن يُنَزِّلَ ألفاظه

في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب اليه ، وآلا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام ،
ولا رفيع الناس خسيس الكلام » .

وتابعه الوزير ضياء الدين بن الأثير في « المثل السائر » ، وأبو هلال العسكري في بعض
ذلك . قال الأخير في بعض أبواب كتابه : « الصناعتين » (١٨) : « ينبغي أن تعلم أن
الكتابة تحتاج الى آلات كثيرة ، وأدوات جمّة : من معرفة العربية لتصحيح الألفاظ واصابة
المعنى ؛ والى الحساب وعلم المساحة والمعرفة بالآزمنة والشهور والأهليّة وغير ذلك مما ليس
هذا موضع ذكره وشرحه » . وخالف أبو جعفر النحاس في كثير من ذلك فذكر في أول كتابه
« صناعة الكتابة » في المرتبة الثانية منه بعدما يتعلق بالخط : ان من أدوات الكتابة البلاغة ،
ومعرفة الاضداد مما يقع في الكسب والرسائل والعلم بترتيب مما يقع بترتيب أعمال
الدواوين ، والخبرة بمجاري العمل ، والدربة بوجوه استخراج الاموال مما يجب
ويمتنع . ثم قال فهذه الآلات ليس لواحد منها بذاته ، ولا انفراد باسم يخصّه ، وانما
هو جزء من الكتابة واصل من اركانها . أما الفقه والفرائض والعلم بالنحو واللغة
وصناعة الحساب والمساحة والنجوم ، والمعرفة باجراء المياه ، والعلم بالانساب فكل واحد
منها منفرد على حدته ، وان كان الكاتب يحتاج الى أشياء منها نحو ما يكتب بالالف
والياء ، والى شيء من المقصور والممدود . وزاد القلقشندي على ذلك : « والتحقيق أن
ذلك يختلف باختلاف حال الكتابة بحسب تنوعها ؛ فكل نوع من أنواعها يحتاج الى
معرفة فن او فنون تختص به . . . فليس احتياجه الى ذلك على حد واحد : بل منها
ما يحتاج اليه بطريق الذات ، وهي مواد الانشاء التي يستمد منها ويقتبس من مقاصدها
. . . ومنها ما يحتاج اليه بطريق العرض كالطب والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم
. . . لينظم ذلك في خلال كلامه فيما يكتب به من متعلقات كل فن من هذه الفنون كالألفاظ
الدائرة بين أهل الطب ومشاهير أهله وكتبه فيما يكتب به لرئيس الطب ، ونحو ذلك من
الهيئة فيما يكتب به لمنجّم ، ونحوه من الهندسة فيما يكتب به لمهندس » (١٩) .

□ المنهج العلمي في الكتابة عند العرب وما قالوه في البلاغة والفصاحة والايجاز :

تكلم رجل عند النبي (ﷺ) فقال له النبي (ﷺ) : « كم دون السانك من حجاب ؟ » .
قال : شفتاي وأسنانني . فقال له : « إن الله يكره الانبياع في الكلام [الاندفاع فيه بلا
توقف] ، فتَضَرَّ الله وجهه رجل أوجز في كلامه ، واقتصر على حاجته . » وسئل النبي
(ﷺ) : فيم الجمال ؟ فقال : « في اللسان » يريد البيان . وقال أيضاً : « ان من البيان
لسحرا » (٢٠) .

قال العملي في « أسرار البلاغة » (٢١) : « البلاغة تختص بالمعاني ، والفصاحة تختص
بالألفاظ ، والايجاز يختص بهما » . قال عبد الحميد الكاتب ، وكان وزير مروان بن محمد

آخر خلفاء بني أمية ، وبه يضرب المثل في الكتابة والبلاغة : البلاغة ما فهمته العامة ، ورضيته الخاصة وقيل لابن المقفع : ما البلاغة ؟ فقال : التي اذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها وسُمِّيَتْ بلاغة لأن المتكلم يبلغ بها الكثير من الغرض في القليل من المعاني والفصاحة : حذفها التخلُّص من التعقيد والتنافر وضعف التأليف ، لأنه يُقال : لفظ فصيح ، ومعنى بليغ والايجاز : هو تقليل اللفظ ، وتكثير المعنى وهو على قسمين : ايجاز قصّر ، وايجاز حذف فايجاز القصّر : هو التعبير عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ ، كقوله تعالى في سورة الحجر/ ٩٤ مخاطباً لنبيه محمد (ﷺ) : [فاصدع بما تؤمر] ، فهذه ثلاث كلمات اشتملت على جميع معاني الرسالة وايجاز الحذف : هو الاستغناء بالمذكور عما لم يُذكر ، مثل قوله تعالى في سورة يوسف/ ٨٢ : [واسأل القرية التي كنّا فيها] والمراد أهل القرية

أقول ويصعب الاحاطة بما قاله العرب في هذا الباب ، وانما أسوق فيما يلي غيضاً من فيض قال صاحب « العقد الفريد » (٢٢) : « أشرف الكلام كله حسناً ، وأرفعه قدراً ، وأعظمه من القلوب موقعاً ، وأقله على اللسان عملاً ، ما دلّ بعضه على كله ، وكفى قليله عن كثيره ، وشهد ظاهره على باطنه ، وذلك أن تقلّ حروفه ، وتكثر معانيه ومنه قولهم : ربّ إشارة أبلغ من لفظ » وقيل في تعريف البلاغة أيضاً أن يبلغ الرجل بعبارته كُنْة ما في نفسه ولا يسمى البليغ بليفاً الا اذا جمع المعنى الكثير في اللفظ القليل ، وهو المسمى ايجازاً ولا يسمى الفصيح فصيحاً حتى تخلّص لفته عن اللكنة الأعجمية وقال الجاحظ في « البيان والتبيين » (٢٣) : « وأحسن الكلام ما كان قليله يفنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه فاذا كان صحيح الطبع ، بعيداً عن الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف صنع في القلوب صنيع الغيث في الثربة الكريمة » وزاد في مكان آخر : « ايّاك والتتبّع لوحشي » الكلام طمعاً في نيل البلاغة ، فان ذلك هو المعنى الأكبر

ونقل صاحب « العمدة » (٢٤) عن ابن المقفع قوله في البلاغة أيضاً أنها « اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة ؛ فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون جواباً فعامة هذه الأبواب الوحي فيها والاشارة الى المعنى والايجاز هو البلاغة فانظر كيف جعل ابن المقفع من السكوت بلاغة ، رغبة في الايجاز » ومثل ذلك ما قاله المبرد في « الكامل » (٢٥) : خير الكلام ما أغنى اختصاره عن اكثاره

أما أصحاب « دائرة المعارف الاسلامية » فقالوا ان البلاغة هي « جودة الكلام فنقول بلاغة الكلمة وبلاغة الكلام ، كما نستطيع أن نقول بلاغة الألفاظ وبلاغة المعاني ، أي جودة كل ذلك » (٢٦)

□ ذكر ما يحتاج اليه الكاتب من التواضع :

استحب ابن قتيبة للكاتب « أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه ، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه ، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة وصناعته عن شين الكذب » .
كما استهجن العرب استخدام ضمائر المتكلم ، وخاصة في صيغة الجمع وما شابهها ، ونوهوا بضرورة أن يخلو أسلوب الكاتب من مظاهر الفخر والمبالغة والاعتداد بالنفس ، لأن « نحن » لا يكتب بها عن نفسه إلا أمرًا ونهًا ، لأنهما من كلام الملوك والعظماء . قال تعالى في سورة الحجر/ ٩ : [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ] . وقال أيضاً في سورة القمر/ ٤٩ : [إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ] . وعلى هذا الابتداء خطبوا في الجواب : فقال تعالى في سورة المؤمنون/ ٩٩ حكاية عمّن حضره الموت : [رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا] ، ولم يقل : ربّ أرجعني (٢٧) » . أقول ولا يدخل في ذلك ضمير المتكلم في حالة المفرد ، « إذا أراد الرجل أن يعرف بنفسه ، أو أن يمدح نفسه بالحق إذا جهل أمره ، وكان في ذلك فائدة » (٢٨) ، كما فعل سيدنا يوسف (عليه السلام) أمام الملك كما أخبر القرآن في سورة يوسف/ ٥٥ : [قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم] . كما أن حقيقة قصور علم الإنسان وحواسه المحدودة تملّي على الكاتب أن يتأدّب كما قال تعالى في سورة الاسراء/ ٨٥ : [وما أوتيتم من العلم الا قليلا] ، وأن يتواضع كما في الحديث الشريف « من قال اني عالم فهو جاهل » (٢٩) ، وأن يتعلّى بمكارم الأخلاق كما قال الشاعر :

ملأى السنايل تنحني بتواضع والفارغات رؤوسهن شوامخ

أو كما قال عبدالله بن المعتز : « متواضع العلماء أكثرهم علماً ، كما أن المكان المنخفض أكثر الأماكن ماء » (٣٠) . لذا فقد اتبع المؤلفون العرب في كتاباتهم منذ القرن الثالث الهجري مبدأ الاعتذار ، حتى غدا قاعدة يرتكز عليها الكتّاب مهما عظم مقامهم ، ورقيت بحوثهم . فانظر الى تواضع ابن الأثير مثلاً وهو يقول في مقدمة كتابه « المثل السائر » : « ولا أدعي فيما ألّفته من ذلك فضيلة الاحسان ، ولا السلامة من سبق اللسان . فان الفاضل من تعدّد سقطاته ، وتخصّى غلطاته » . وهذا العمري يدل على تواضع ذلك العالم النحرير أكثر مما يشير الى وجود أغاليط في كتابه .

□ خاتمة :

ونختم الحديث بضرورة أن يقوم الكاتب بمراجعة ما خطّه يراعه ، من وقت الى آخر ، لتنقيح ما سوّد ، وتهذيب ما كتب . تأمّل مقدار الدقة والحذر الذي وصله الجاحظ عندما قال : « وينبغي لمن كتب كتاباً ألاّ يكتبه الا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له . فاذا سكنت الطبيعة ، وهذأت الحركة ، وتراجعت الأخلاط ، وعادت النفس وافرة ، أعاد النظر فيه . فيتوقف عند فصوله توقّف من يكون طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب » (٣١) .

□ الحواشي :

- ١ - صبح الأعشى في صناعة الانشا للقلقشندي ، أحمد (٨٢١ - ١٤١٨ هـ) • نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ١ : ٥١ •
- ٢ - الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي • دار الفكر • بيروت ، لبنان ٢٠ - ١٢٠ •
- ٣ - البيان والتبيين للجاحظ ، عمرو (١٥٠ - ٢٥٥ هـ) حققه عبد السلام محمد هارون • دار الجيل ودار الفكر ، بيروت ، لبنان ١ : ٧٩ •
- ٤ - صبح الأعشى ١ : ٣٧ - ٤٣ •
- ٥ - المرجع السابق ١ : ٤٥ •
- ٦ - زهر الآداب وثمر الألباب للحصري ، إبراهيم (٤٥٣ - ؟ هـ) • حققه وشرحه د. زكي مبارك • دار الجيل • بيروت ، لبنان ٢ : ٤٨٠ - ٤٨١ •
- ٧ - صبح الأعشى ١ : ٤٤ •
- ٨ - أسرار البلاغة للعاملي ، بهاء الدين (٩٥٣ - ١٠٣١ هـ) • مطبوع على هامش المغلاة • دار المعرفة • بيروت ، لبنان : ٣١٦ •
- ٩ - عيون الأخبار لابن قتيبة ، عبدالله (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) • نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ٢ : ١٥٧ •
- ١٠ - نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ، شهاب الدين أحمد (٦٧٧ - ٧٣٣) • نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ٧ : ٢٧-٣٥ •
- ١١ - صبح الأعشى ١ : ١٥٠ •
- ١٢ - المرجع السابق ١ : ١٦٥ •
- ١٣ - العيوان للجاحظ • طبعة دار أحياء التراث العربي المصورة عن الطبعة المصرية التي حققها عبد السلام محمد هارون ١ : ٧٧ •
- ١٤ - صبح الأعشى ١ : ١٧٠ - ١٧٣ •
- ١٥ - عيون الأخبار ٢ : ١٥٨ •
- ١٦ - صبح الأعشى ١ : ١٧٠ •
- ١٧ - أدب الكاتب لابن قتيبة • حققه محمد الدالي • مؤسسة الرسالة : ١٢ - ١٨ •
- ١٨ - الصناعتين لأبي هلال العسكري • طبع الأستانة : ٧ •
- ١٩ - صبح الأعشى ١ : ١٤١ - ١٤٦ •
- ٢٠ - العمدة لابن رشيق ، ١ : ٤١٧ - ٤٢٩ •
- ٢١ - أسرار البلاغة : ٣١٦ •
- ٢٢ - العقد الفريد للاندلسي ، أحمد بن محمد بن عبد ربه ٤ : ١٥٥ •
- ٢٣ - البيان والتبيين ١ : ٨٣ •
- ٢٤ - العمدة لابن رشيق ١ : ٤٢٠ •
- ٢٥ - الكامل للمبرد ، محمد بن يزيد • (٢١٠ - ٢٨٥) • مؤسسة الرسالة • بيروت ، لبنان ٢ : ٨٨٤ •
- ٢٦ - دائرة المعارف الإسلامية • طبع كتاب الشعب ٧ : ٥٢٩ مادة (بلاغة) •
- ٢٧ - أدب الكاتب : ١٤ •
- ٢٨ - كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ، محمد بن أحمد (؟ - ٢٩٢ هـ) • دار الفكر • بيروت ، لبنان ١ : ١٢٢ •
- ٢٩ - التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول لناصيف ، منصور علي • دار الكتب العلمية • بيروت ، لبنان ١ : ٧٤ •
- ٣٠ - نهاية الأرب ٣ : ٢٤٥ •
- ٣١ - العيوان ١ : ٨٨ •